المقيـاس: مصـادر اللغـة و الأدب و النقـد المحاضـرة الأولـى : المصـادر و المراجع

المستوى: السنـة الأولـى الأستاذة: بوقرومـة حكيمـة السنـة الجامعيـة: 2016/ 2017

إن المصادر و المراجع لفظان يترددان كثيرا على ألسنة الطلاّب و الباحثين، و لا يكاد يخلو بحث من استعمال أحدهما أو استعمالهما معًا للدلالة على المنابع و الروافد التي صبّت في البحث والتقت مياهها فيه. و الحق أن اللفظين متقاربان في معناهما اللغوي، فالصدر و الرجوع مصدران بمعنى واحد، و الصدر أيضا اسم يدّل على أعلى مقدّم كل شيء و أوله كما تذكر معاجم اللغة، و من ثم يمكن التمييز بين المصدر و المرجع على أساس أنّ الأوّل أخصّ من الثاني، لأنه يقتصر في الدلالة على ما يرتبط بالأشياء الأساسية أو الأولية بالنسبة لموضوع البحث.

و هذا الفارق اللغوي بين المصدر و المرجع هو نفسه الفارق بينهما في الاستعمال الاصطلاحي في مختلف مجالات البحث.

فهناك فرق بين مصدر رئيسي كما يسمى غالبا و بين مصدر ثانوي أو مرجع، هذا مع العلم أنّ أغلب الناس درجوا على عدم التمييز بينهما، فيطلقون اسم المرجع على المصدر أو اسم المصدر على ما هو مرجع، و لكن الأمر يحتاج إلى تحديد هذين المفهومين.

فالمصدر: هو الكتاب الذي تجد فيه المعلومات و المعارف الصحيحة من أجل الموضوع الذي تريد بحثه. فالمصدر في الدراسات التاريخية هو الكتاب الذي يضمّ معلومات أصلية عن موضوع الدّراسة، كأن يكون روايات مشاهد للحدث التاريخي أو وثائق أو آثارا ترجع إلى الفترة موضوع الدّراسة، و المصدر في علم الحديث هو كتب الأحاديث نفسها، أما المرجع فيطلق على الدراسات الحديثة التي عالجت الموضوع تاريخيا أو حديثا.

المصدر إذن هو كلّ كتاب تناول موضوعا و عالجه معالجة شاملة عميقة، أو هو كلّ كتاب يبحث في علم من علوم على وجه الشمول و التعمق، بحيث يصبح أصلا لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه.

و المصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضم نصوصا أدبية، شعرا أو نثرا، لكاتب واحد أو مجموعة من الكُتّاب، لشاعر فردا كان أو لطبقة من الشعراء، أو لخليط من كتّاب و شعراء و خطباء، رويت هذه الأشعار شفاها، أو دونت في كتب، أو نقشت على الأبنية، و وصلتنا دون تعليق على النص أو تفسير له، دون تمهيد له أو تعقيب عليه. فدواوين الشعراء، و المختارات شعرية كانت كالمفضليات و الأصمعيات و جمهرة أشعار العرب، و مختارات ابن الشجري، و حماسة أبي تمّام، أو نثرية كنهج البلاغة للإمام علي، و جمهرة خطب العرب، و جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت، و كليلة و دمنة، و الأدب الصغير و الكبير لابن المقفع، و المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، و مجمل الأمثال للميداني، و أمثال العرب للمفضل الضبي، و جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، كلها مصادر أدبية أيًّا كان المدون لها.

و يمكن التمييز بين نوعين من المصادر الأدبية:

أ- مصادر أساسية: و هي التي استهدف بها أصحابها الجانب الأدبي بدءًا.

ب- مصادر مساعدة: تتمثل في نصوص أدبية و هامة، مبثوثة في كتب غير أدبية، من المعاجم، و كتب النّحو و اللغة، أو الجغرافيا و التاريخ، و تتفاوت المصادر فيما بينها، أساسية أو مساعدة تبعا لراويها أو مدوّنها، من صدقه و ثقافته بما يروي، و معاصرته لمن يروي عنه، أو قربه من عصره و شيوع رواية و تواترها.

و حين شاع التدوين أصبح مدار التوثيق و التقويم، هل مخطوطة المصدر الأدبي بخط المؤلف، أم بخط معاصر له؟ و من الواضح أنّ أهم النّسخ قيمة، و أعظمها توثيقا، تلك التي كتبها المصنف نفسه و عليها توقيعه و وصل إلينا عدد لا بأس به من مخطوطات هذه المصادر، ثم تأتي في المكان التالي، و ربما حلّت محل المخطوطة الموقعة، المخطوطة التي نسخها طلاب المؤلف، أو أحدهم كما سمعوها منه إملاءً في حلقة الدرس، أو نسخوها بإشرافه، أو تلك التي يكون المؤلف قد صححها و أجازها، لأن قراءة الطالب النص على شيخه، تقلل من أخطاء الإملاء، و تصحح النّص، و تتيح للمؤلف فرصة يراجع فيها آراءه، و يأتي بعدهما في الأهمية الحصول على نسخة كتبها عالم شهير، أو كانت في حوزة رجل عالم، أو تداولها عدد من العلماء، و يعطي قدم المخطوطة قدرا كبيرا من الثقة فيها، و المخطوطات العربية عامة مؤرخة. أما التي لا تحمل تاريخا فيشير العلماء إلى عصرها بقولهم: "إنها مخطوطة قديمة العهد"، أو "بأنها تعود إلى عصر المصنّف"، فإذا صعب عليهم تحديد زمنها، نسبوها إلى المكتبة التي وجدت فيها.

أما **المرجع**، فهو مصدر ثانوي يساعدنا على إكمال معلوماتنا و التثبت من بعض النقاط، و المعلومات التي يحتويها تقبل الجدّة. و المرجع هو الكتاب الذي رجع فيه صاحبه إلى المادة الأصلية (المصدر) في مصدرها و أفاد منها، و يطلق على الدّراسات الحديثة التي عالجت الموضوع تاريخيا أو حديثا.

أمّا عند المكتبيين، فالمراجع هي الكتب الشاملة التي ترتب مادتها ترتيبا لا يراعى فيه ترابط وحداتها ترابطا عضويا، كالترتيب الهجائي مثلا، و من ثم فهي لا تقرأها من أولها إلى آخرها، و لكن يرجع إليها عند الضرورة للإجابة عن استفسار معين لدى الباحث، و تمثل المراجع أهم أدوات البحث، و يحتاج إلى نوع من الكتب المرجعية التي تقدم الإرشادات المطلوبة، أو تشير إلى مصدر تتوفر فيه هذه الإرشادات أو تساعد في توضيح محتوى و إطار التفسير.

فالمرجع إذن يساعد على فهم النص الأدبي و توضيحه و تفسيره و تقويمه، و لمّا كانت عملية الخلق الأدبي معقّدة، تتداخل فيها عناصر مختلفة، ذهنية و شعورية، و تخضع لمؤثرات عديدة، تأتي من داخل الأديب و خارجه، عفوية أو مقصودة، و تسهم فيها طبيعته و نفسيته و مزاجه، و البيئة التي يعيش فيها، و اللغة التي يتكلمها، و القيّم المسيطرة على المجتمع الذي تمت فيه، فإنّ المراجع تتسع و تتعدد حتى تشمل ذلك كلّه، فتكون لغة و تاريخا و فلسفة، و ما ينطوي تحت هذه الأصول من فروع.

و قد تكون المراجع **أصيلة**، ألّفت في العصر الذي أنشىء فيه النص الأدبي أو قريبا منه، فمؤلّفه أقدر على تفسيره و فهم إشاراته، و من ثم يصبح "شرح المرزوقي" لحماسة أبي تمام، أو "شرح الأنباري" لمفضليات الضبي، مرجعًا أصيلا لفهم هذه الأشعار.

أما **المراجع المساعدة**، فهي التي لا تتصل أصلا بمادة المصدر، و لكنها يمكن الإفادة منها بطريقة غير مباشرة في إلقاء الضّوء عليها، و المراجع المساعدة تكون أبحاثا حديثة، تعين على تكوين فكرة، أو تذليل صعوبة، أو تصحيح خطأ، دون أن تأخذ آراء مؤلف المرجع صفة التسليم المطلق أو الحقيقة الجازمة.

و كلا اللونين من المراجع الأصيلة و المساعدة، قد تكون مباشرة، تخدم النص الأدبي عن قرب، ككتب اللغة و التاريخ، و قد تكون غير مباشرة. و قد تصنف المراجع تصنيفا آخر وفقا لقدمها و

حداثتها، فيقال مرجع قديم و مرجع حديث، و المرجع الحديث يفيد غالبا من المرجع القديم، فكتاب "الكامل" للمبرّد مرجع قديم في أدب الخوارج و غيره، في حين أن كتاب "أدب الخوارج" للدكتورة "سهير القلماوي" مرجع حديث.

و رغم هذا التوضيح تبقى المشكلة قائمة، إذ يصعب في كثير من الأحيان الفصل بين ما هو مصدر و ما هو مرجع، غير أنه في الحقيقة كلّ دارس يستطيع أن يحدّد مصادره و مراجعه في كل حالة وفقا لطبيعة دراسته و لمنهجه في هذه الدراسة، و عند هذا يصبح كل كتاب يمدّه بالمادة الأولية (أي مادة الدراسة) مصدرا، و كل كتاب يلقي أضواءً على هذه المادة، أو يقول فيها رأيا، فهو بالنسبة إليه مرجع.

و كمثال على ذلك، أنّ الدّارس الذي يريد أن يدرس شعر "ابن الرومي" مثلا، يكون ديوان الشاعر و ما اتصل بحياته من أخبار مصدرا له، في حين يكون كتاب "ابن الرومي، حياته و شعره" لعباس محمود العقاد مرجعا، و لكن إذا كان موضوع الدراسة مثلا عنوانه: الدراسات الأدبية في كتابات العقاد"، فإن كتاب "ابن الرومي، حياته و شعره"، يصبح مصدرا من مصادر هذه الدراسة، و تصبح هذه الدراسة فيما بعد مرجعا.